معى منها أكثرُ مما قصَّر بى فى حُسْن الصورة ؛ وسأبلغ محبَّتك فى كل ما تأمرنى . ولو أنت آذيْتَنى لَعَدَدْتُ الأذى منك نعمةً ، فكيف إن وَسِعنى كرمُك وسَتْرك ؟ إنك لا تعامل الله بأفضلَ من أن تكون سبباً فى سعادة بائسة مثلى . أفلا تحرص ياسيدى على أن تكون هذا السببَ الشريف ؟ »

ثم إنهـا وثبتْ فجاءت بمال فى كيس وقالت : ياسيدى ، قـد أحلّ الله لك معى ثلاثَ حرائر وما آثَرْتَه من الاماء ؛ وقد سوَّغتُك تزويجَ الثلاث وابتياعَ الجوارى من مال هـذا الكيس ، فقد وقفتُه على شهواتك ، ولستُ أطلب منك إلا سترى فقط .

* * *

قال أحمـد بن أعين : فحلف لى التاجر : إنها ملكتْ قلبى مِلْكاً لاتصل اليه حسناءُ بحسنها ، فقلت لهـا : إن جزاء ما قدّمتِ ما تسمعينه منى : « والله لأجعلنّك حظى من دنيـاى فيما يُؤْثِره الرجل من المرأة ، ولأَضرِبَنَّ على نفسى الحجاب ماتنظر نفسى إلى أنثى غيرك أبدا . » ثم أتممتُ سرورَها فحدثتها بما حفظته عن أبى عبد الله البلخى . فأيقنتْ والله يا أحمـد أنها نزلتْ منى فى أرفع منازلها ، وجعلتْ تحسُـن وتحسن كالغصن الذى كان مجرودا ثم وخزته الخضرة من هنا ومن هنا .

وعاشرتُهـا فاذا هى أضبط النساء ، وأحسنهن تدبيراً ، وأشفقهن علىّ ، وأحبُّهنّ لى ؛ وإذا راحتى وطاعتى أوّلُ أمرها وآخره ؛ وإذا عقلها وذكاؤها يُظهران لى من جمال معانيها ما لا يزال يكثر ويكثر ، فجمل القبح يقلّ ويقل ، وزال القبح باعتيادى رؤيته ، وبقيتْ المعانى على جمالها ؛ وصارت لى هذه الزوجة هى المرأةَ وفوق المرأة .

ولما ولدتْ لى جاء ابنها رائع الصورة ، فحدثتنى أنها كانت لاتزال تتمنّى على كرم الله وقدرته أن تتزوّج وتلد أجمل الأولاد ، ولم تدع ذلك من فكرها قط ، وألّف لها عقلها صورة أجمل غلام تتمثّله وما برحت تتمثله . فاذا هى أيضا كان لها شأنٌ كشانى ، وكان فكرُها عملاً يعمل فى نفسها ، ويديرها ويصرّفها .

ورزقنى الله منها هـذين الابْنَيْن الرائعيْن لك ، فانظر أىُّ معجزتين من معجزات الايمان . ؟

طنطا مصطفى صادق الرافعى

<u>صفحة من التاريخ</u>

ميـــــدان القَبَق

بين السعد والنحس

للأستاذ محمد فريد أبو حديد

صف لى ملاهى قوم من الأقوام أصف لك خلقهم ونصيبهم من الحياة — وإذا أخطأنى حظ الاصابة مرة لم يكن الخطأ إلا مؤقتاً ، ويكون تطاول الأيام كفيلاً بتحقيق ما أتوقع — وليس ذلك ناشئاً من أن الله قد وهبنى ما لم يهب سواى من قدرة على التكهن أو التنبؤ ، بل هى مجارى الأقدار تنساق فى سبيل لا حيلة فى الحيد عنها ، ولا وسيلة إلى الانفلات منها .

وقد علمت أن الرومان أقبلوا على ملاهٍ يقشعر بدن الانسانية من تصور ما كان يجرى فيها من فظائع . وايمن الحق ما كان لامرىء أن يتنبأ لشعب الرومان إلا بالانحدار والانحلال ما دامت نفوسهم لا تهتز إلا بسفك الدماء ، ولا ترتاح إلا إلى مناظر الوحشية . وقد رأيت ماتم عليه آثار مدنية يومىء من هُوِى إلى سحيق الدعارة ، وما كان لك أن تتطلع فى مستقبل ذلك الشعب إلا إلى نزول وهبوط ، إذ أن النفوس لا تلهو إلا بما مرنت عليه واطمأنت إليه وسرى فى عاداتهـا وتغلغل فى حياتها . وللحياة القوية مطالب وتكاليف ، إذا اعتادت النفوس القيام عليها صارت لذتها فى مباشرتها . ودونك من الشعوب القوية ما يوضح ذلك أتم إيضاح ، فذلك شعب الانجليز ترى لذة شبانه وكهوله فى ممارسة الرياضة بأنواعها ، والجولان فى البحر والبر والهواء ، يجدون اللذة القصوى فى مقارعة الأخطار ومقابلة العقبات . وإذا شئت مثلاً آخر فلن تعوزك المُثُل ؛ فالشعوب القوية ولله الحمد كُثُر فى كل عصر ، ولن ترى شعباً قوياً تنزو به الحياة وتثب به القوة إلا رأيت لذته فى مثل مقارعة الخطوب ومنازلة قوى الطبيعة .

ولقـد كان لنا آباء — رحمهم الله — لم يكونوا من المتخلفين فى ميـدان الحياة . بل كانوا حماة عصرهم وسادة جيلهم . ولست

أتردد في أن أسميهم بالآباء ، على أنهم قد لا يكونون لى آباء . كما أننى لا أتردد في أن أسمى الفراعين آبائى ، ولعلهم لم يكونوا من آبائى . فإنني لا تجرى فيَّ دماء الملوك . ولئن كان فيَّ شئ منها فقد جهلته . فالملوك الأقدمون منذ خلدوا على صفحات التاريخ قد أصبحوا اليوم آباء لنا في أنهم كانوا الحفظة لمُثلنا العليا ، والقُوَّامَ على آمالنا القومية . فهم آباؤنا في التراث القومى وإن بعدت بيننا علاقات النسب . لا ، بل وإن اختلفت ألوان الدماء وتباينت مواطن الشعوب .

في جانب القاهرة المعزية من الشمال الشرقى حى اسمه الآن حى العباسية الشرقية ، ومن ورائه من ناحية الجبل مساحة عظيمة مسطحة لا تكاد ترى فيها نشزاً . وقد اختطت في بعض جهات هذا المتسع في أيامنا الحاضرة مدافن حديثة شقت ما بينها الشوارع وأُنشئت الحدائق ، وهذا السهل يتصل إلى جنوب القاهرة فيما يلي قلعة الجبل لا تكاد ترى في كل هذه المسافة تلا يعكر سهولة السطح ، وهذه المساحة هى بعينها الميدان القديم الذى أنشأه أحد أجدادنا العظام الذين قدمت الاشارة إليهم ، وهو الملك العظيم الظاهر بيبرس البندقدارى ؛ وكان اسم هذا الميدان الفسيح في تسمية العامة : (الميدان الأسود) أو ميدان السباق . وكان في تسمية الخاصة : (ميدان القَبَق) .

أما القبق فهو آلة من آلات التمرين الحربى ، وهو عبارة عن قرص كبير من الخشب يوضع فوق سارية عالية ، ويوضع وراءه هدف يرمى إليه الجنود سهامهم ؛ وكان الرمى بالقسى والسهام من أكبر وسائل الرياضة عند أهل ذلك العصر من سنى القرن الثالث عشر الميلادى أو القرن السابع الهجرى .

وكانت مصر حينئذ قلب الشرق الاسلامى وكنانته . إذ كانت بلاد ما بين النهرين قد أكلتها نيران التتار ، وأصبحت دامية صريعة تئن تحت سنابك خيل أحفاد جنكيز خان . وكانت بلاد الشام لا تزال تعانى بقايا الفتح الأوربى الذى اعتراها في مدة الحروب الصليبية ، وكانت أوربا لا تزال في أول أدوار النهضة بعد أمد العصور الوسطى ، ولا تزال على عقليتها القديمة التى دفعتها الى الحروب الصليبية تحاول ما استطاعت أن تبطش بدول الاسلام. فكان على دولة مصر أن تحفظ مدنية الاسلام ، وتراث العلم والنور من موجة التتار المخربة المدمرة من جانب الشرق ، وأن تدفع عادية أوربا الحنقة الثائرة من جانب الغرب . ولهذا كان لا مفر من أن تكون مصر على رباط دائم ، وفؤاد يقظ حديد .

وكان بيبرس ممثل الدفاع في القرن الثالث عشر الميلادى ؛ حمل الراية مدة حكمه الطويل فكان بطلاً موفقاً مجدوداً لم تكن أعوامه تخرج عن عام غزو في بلدة من بلاد الشام ، أو عام موكب انتصار عقب فتح من الفتوح . وما كانت مواسم مصر على يديه إلا تلك المواسم النابضة بالحماسة ، الجياشة بمعانى الرجولة والحياة القوية .

وكان ميدان القبق مشهد أكبر المواسم وأحبها الى الناس ، سواء في ذلك العامة والخاصة . وها نحن أولاء نصف واحداً من تلك المواسم البيبرسية التى سادها السعد والتوفيق ؛ فكان مبعث سرور للآلاف من الناس وآية مجد وجلال للدولة ورجالها .

كان ذلك في يوم شديد الحر في شهر رمضان ؛ وكانت العادة أن ترش أرض الميدان الأسود بالماء قبل أن يبدأ فيه الاحتفال ؛ فرأى السلطان الجليل (بيبرس) أن رشّ هذا الميدان الفسيح في مثل هذا اليوم القائظ وفي شهر الصيام فيه تكليف شاق على الناس . وأشفق أن ينالهم من ذلك أذى ، فأمر بأن يكف الناس عن الرش وأن يتحمل هو وجنوده مشقة الاحتفال في القيظ بغير ترطيب الأرض بالماء .

وأبى الله أن يجزى مثل هذا العطف بغير جزائه . فكان من دلائل سعد السلطان ويمن أيامه أن ساقت الرياح غمامة في ذلك اليوم على غير عادة في مثل ذلك الوقت ، فأمطرت الميدان حتى رطبت أرضه ، ثم أقلعت . وما أتى وقت الاحتفال حتى رأى بيبرس وفرسانه ميداناً دهسا غير ملبد ولا زلق .

ودخل السلطان العظيم على رأس قواده وجنوده ، فكلف كبارهم باظهار ما عندهم من البراعة في الرماية . ووقف الناس ألوفا حولهم يعجبون بما يرون ، وتثب قلوبهم سروراً بما يعجبون به ، إذ رأوا حماتهم جديرين بما أولوهم من زعامة في الدفاع المجيد .

ثم ركب السلطان في قمة الصف ، واصطف وراءه القواد والجنود بحسب المراتب المرسومة ، وحمل كما يحمل إذ يكون

فى ميدان الحرب وحمل وزاءه أتباعه كباراً وصغاراً ، كأنما هم رجل واحد ، ولهم إرادة واحدة . فاذا كر السلطان كانت الألوف وراءه كجزء منه ، وإذا لف كانت الألوف من خلفه كأنما هى قطعة واحدة — وتعالت عنـــد ذلك أصوات الأعجاب والحماسة ، واختلطت بزفرات النعاء والولاء ، فلقد كان بيبرس العظيم مايكاً على الناس مسيطراً على الأفئدة .

وانتهى اليوم على ما ابتدأ به من السعد ، ووزعت الهبات والصلات ، وتتابعت العطايا والهدايا ، ونال الناس من بر ذلك اليوم ما لم يفت طبقة من الطبقات ، فقد قرت أعين الأمراء بالتكريم ، وأثلجت صدور الفقراء بالعطاء .

وما كان مثل عصر (بيبرس) ليذهب بغير أثره ، فقد أصبح الناس جميعاً ولا همة لهم إلا فى تقديس أبطال الفرسان ، ولا مسرة إلا ما تبعثه مناظر الكر والفر ، وأصبح بفضل هذا الروح فى مصر جيش من أبطال ما زالوا مضرب الأمثال فى النظام والشجاعة والمهارة ، وأصبح الشعب وذهنه منصرف إلى ناحية حياة الرجولة والدفاع والنضال ، لايقبل على لهو إقباله على شهود أيام الاحتفال . قال المقريزى فى وصف ذلك : « وصارت تلك الأمكنة لاتسع الناس ومابقى لأحد شغل إلا لعب الرمح ورمى النشاب » .

غير أن ذلك الميدان لم يشهد السعد وحده ، بل شهد بعض ساعات من النحس بعد أن تغير الزمان وتبدل الحال . ولم يكن فى الامكان أن يجود الزمان بالأفذاذ يتبع بعضهم بعضاً بغير انقطاع . وإلا فلم سمى الأفذاذ أفذاذاً ؟

فحكم مصر فى أواخر القرن الثالث عشر المسيحى سلطان آخر يمتاز عن بيبرس بأنه من سلالة ملكية ، إذ كان أبوه سلطاناً قبله ، غير أنه لم يكن فى مثل قوة بيبرس ولا فى مثل توفيقه وسعده ، وذلك هو السلطان الأشرف خليل بن قلاوون .

أراد يوماً أن يحتفل احتفالاً مجيداً كمن سبقه من السلاطين العظام ، واختار ميدان القبق لذلك الاحتفال ، وأراد أن يجعل ذلك الاحتفال على ما شاء له الملك الضخم والغنى الواسع وبيت العز الجليل . وكانت الخاتون الجليلة زوجة السلطان على وشك أن تضع ولداً . وكان أكبر أمل الملك العظيم أن تلد له غلاماً يكون وارثاً لملك جده وأبيه ، وسبق السلطان الأقدار إلى إعداد العدة لاستقبال المولود السعيد المنتظر ، وكان يرجى أن يكون يوم ذلك الاحتفال هو يوم الوضع الموعود .

ومهد الميدان ورشت جوانبه ، وجهزت أدواته وآلاته ، وزينت طرقه وحواشيه ، وأقبل السلطان فى موكبه الفخم وركابه المهيب . وابتدأ الاحتفال يباهى الايام الماضية بجلاله وضخامته ، غير شىء واحد كان غير ماثل فيه ، وهو جلال بيبرس العظيم وتعلق قلوب الشعب والجنود به . وجرى كل شىء على سَنَنِهِ المعتاد غير أمر واحد ، وهو سعد السلطان بيبرس العظيم وتوفيقه . فما هى الا جولة حتى اغبر الجو وأظلمت السماء ، وثارت عاصفة هوجاء يكاد الواقف فيها لا يرى جاره أو يستبين ما حوله . فتحول اليوم من احتفال وعيد الى فوضى واختلال ، وهدم فى ساعة ما قضى السلطان فى إعداده أياما طوالا وبذل فى سبيله اموالا طائلة . ثم وضعت الخاتون طفلها أنثى ، ولم يتحقق أمل السلطان فى وارث يحفظ الملك عقبه فى بيته .

وهكذا تجرى الأقدار فى مسالكها الغامضة ، وإنما يرى الناس منها الآثار التى تدهش لها الألباب وتعشى منها الأبصار ، بغير أن يستطيعوا رؤية ما وراء ذلك من تدبير القضاء ، فكان ذلك اليوم آخر ما شهده ميدان القبق من جليل الاحتفال . حقاً لقد عاد اليه بعض الملوك حيناً ولم يرجعوا اليه الحلية ، غير أن الروح لم يعد إليه ، والروح سر عجيب لم تستطع البشرية أن تسمو اليه ، فانه يحل فلا تعرف أنه حل الا من آثاره ، ثم يذهب فلا تدرك ذلك الا من آثار ذهابه ، ولكنه غامض غموض المغيب المحجوب . ومن أعجب ما فيه أن السعد إنما يقبل مع اقباله ، والنحس إنما يحل عند إدباره ، وانه إذا كان أدبر يوماً ، فلا جرم أنه يدبر لكى يعود فى يوم آخر ، ولو بعد حين .

محمد فريد أبو حديد

ضحى الاســـــلام
وهو الكتاب التالى لفجر الاسلام
للأستاذ احمد أمين
ثمنه ٢٠ قرشاً